

محنة العراق وموقف المرجعية



عبدالنبي الشعلة *

من حيث المبدأ والقناعة والإيمان وبكل وضوح فإننا نقف دائماً ضد تدخل المؤسسة الدينية في أمور السياسة وشؤون الحكم. لكن نظراً للمحنة التي يعيشها العراق الشقيق اليوم، فإن الأمر الواقع يفرض علينا الوقوف إلى جانب مؤسسة المرجعية الشيعية في النصف الأثرف عند هذا المتعطف بالذات وفي هذه المرحلة فقط، وأن نقف إلى جانب مرجعها الأعلى السيد علي السيستاني الذي يواجه ويقاوم ضغوطاً شديدة ومتزايدة من مرجعية قس، أو بالأحرى من مرجعية طهران، ومن أذرعها ومراكز نفوذها المتمددة في العراق والتي أصبحت تمتلك قدرات وإمكانات مادية وعسكرية وإعلامية هائلة.

نقف إلى جانب مرجعية النجف لأن السيستاني أعلن صراحة انخراطه إلى صف المحتجين والمظاهرين المطالبين بتوفير أسبب المتطلبات المعيشية ووضع حد للفساد والمحصوية وسرفة المال العام والهيمنة الأجنبية على مقدرات الوطن وتدخل ولاية الفقيه في الشؤون الداخلية للعراق، ولأنه نصح السلطات الأمنية في العراق بالاستجابة لمطالب المظاهرين وعدم استخدام القوة المفرطة في مواجهتهم، بعد أن أدركت المرجعية أن شيعية العراق بشكل خاص والشعب العراقي عموماً قد ضاق ذرعاً وطغح به الكيل فانتنض وهب لاستعادة وصون كرامته وإلتقاد وطنه من الهيمنة الأجنبية ومن استباحة كرامته ومقدراته باسم الدين، واستنطاق من التنويم المغناطيسي الأيديولوجية السياسية التوسعية المصبوغة بألوان مذهبية زاهية. نقف إلى جانب السيستاني لأنه مُلمّ ومتنرم بآثاره ويعقده مرجعية النجف الرافضة

من الأساس للتدخل في الشؤون السياسية والادخراط في النشاط السياسي، والمناهضة لنظرية ولاية الفقيه، ورغم أنه إيراني الأصل والمولد فإنه لا يستطيع أن يجيد عن هذا النهج الذي اختطه أسلافه من كبار مراجع مرجعية النجف، إلى جانب أنه شخصياً ومنذ البداية من المعارضين لهذه النظرية شأنه في ذلك شأن الكثير من كبار علماء الشيعة حتى في إيران نفسها الذين يرون أن هذه النظرية متكلفة ومخالفة للمنطق والعقل وتعاليم الدين.

لقد وضع مؤسسو وقادة الأمة الإسلامية من السلف الصالح القواعد الأساسية لمبدأ "ولاية الأمة على نفسها" وليس "ولاية الفقيه"، فهذا هو الخليفة الأول أبو بكر الصديق رضي الله عنه يخاطب جماهير الأمة بعد تنصيبه خليفة للمسلمين قائلاً: "أما بعد أيها الناس فإني قد وليت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوموني...." إلى أن قال: "أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم".

وقد وصف الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام كيف أنه تسلم زمام الخلافة بإرادة الأمة حين قال كما ورد في نهج البلاغة: "ثم تداكمتم علي تذاك الإبل الهم على حياضها يوم وردها حتى انقطعت النعل وسقط الرءاء ووطئ الضعيف وبلغ من سرور الناس ببيعتهم إياي أن ابتهج بها الصغر....." إن مرجعية النجف لا تؤمن بولاية الفقيه بل تؤمن بـ "ولاية الأمة على نفسها" وهو موقف يخالف بشكل حاد مفهوم الولاية المطلقة للولي الفقيه الذي أرساه الإمام الخميني والذي يستمد من خلاله الولي الفقيه السلطة المطلقة

من الله نيابة عن الإمام الغائب ما يجعله المسؤول عن رعاية أحوال المسلمين جميعاً وتدير شؤونهم الدينية والدنيوية بتفويض إلهي وبموجب وظيفته كزعيم للأمة الإسلامية كما ينص الدستور الإيراني، في مقابل ذلك فقد أعلن السيستاني في إحدى خطب الجمعة مؤخراً: "إن الحكومة إنما تستمد شرعيتها من الشعب، وليس هناك من يمنحها الشرعية غيره، وتتمثل إرادة الشعب في نتيجة الاقتراع السري العام إذا جرى بصورة عادلة ونزيهة". ويشهد لمرجعية النجف كذلك عدم تدخلها في شؤون الشيعة في مختلف أوطانهم، وإنها جعلت علاقتها بهم محصورة في نطاقها الديني والروحي على خلاف مرجعية طهران التي تجد نفسها مسؤولة عن شيعة العالم.

إن موقف مرجعية النجف تجاه ممارسات الولي الفقيه ينبثق أيضاً من اختلاف صارخ بين رؤيتين أساسيتين في الفكر الشيعي السياسي والديني الذي انعكس على شكل صراع خطي ومنافسة صامتة بين المرجعيتين، إلا أن الكفة في هذا الصراع وهذه المنافسة ستظل تميل لصالح النجف التي تتمتع بمكانة رمزية متأصلة لدى الشيعة وفي وجدانهم أينما كانوا لا تتمتع مثلها مرجعية قم، ثم إن للتاريخ والمكان إسقاطات ومدلولات أخرى مؤثرة، فالإمام علي اختار الكوفة بالعراق عاصمة له، وهو يرقد في النجف وليس في قم أو غيرها من المدن الإيرانية، وأن العراق هي التي تشرت بالدماء الطاهرة لأحفاد الرسول التي أهرقت وأسيلت عليها وليس على أرض فارس، وأن للعراق منذ فجر الإسلام قائمة مميزة ومكانة خاصة في قلوب المسلمين عموماً والشيعية خاصة لا يمكن أن تقارن بمكانة بلاد

فارس، كما أن الشيعة يعتبرون العراق منبع التشيع أما إيران فلم يكن لها وجود مصسوس في الساحة الشيعية قبل قيام الدولة الصفوية، إضافة إلى ذلك فإن الولاء المذهبي لشيعية إيران نفسها وقلوبهم تهبوا إلى مرجعية النجف أكثر من مرجعية قم، ولذلك فإن أكثر من نصف الخمس الذي يدفعه الإيرانيون يذهب إلى مرجعية النجف كما أكد الكاتب الإيراني المعروف أمير طاهري في مقال له نشر في جريدة الشرق الأوسط الأسبوع الماضي. وكما قلنا في بداية هذا المقال بأنه نظراً للمحنة التي يعيشها العراق الشقيق اليوم، وكحالة استثنائية، فإن الأمر الواقع يفرض علينا الوقوف إلى جانب مؤسسة المرجعية الشيعية في النجف عند هذا المتعطف بالذات وفي هذه المرحلة فقط للأسباب التي ذكرناها، ولذلك فإننا نتمنى من صميم قلوبنا ونتضرع إلى الله جل جلالته بأن تنفض الغمة عن أرض الرافدين العزيزة، ويعود الاستقرار إليها، وتستتب الأمور فيها، وتنتعق من نير الهيمنة الأجنبية، وتحظى بحكومة نزيهة مخلصه ومنتخبة؛ عندها على المرجعية أن تبادر بالانسحاب من الساحة السياسية وتترك السلطة بأوزانها وأثقائها في يد السياسيين وتدع ما لقيصر لقيصر وما لله لله. وعليها أن تدرك أن عصر الحكم نيابة عن الله قد انتهى، وأسقطت الشعوب نظام حكم الكنيسة، وولى إلى غير رجعة نظام حكم الأيديولوجيات بانهار الحكم الشيوعي في الإتحاد السوفيتي، ولن تسمح روح العصر وتحدياته باستمرار الحكم باسم الدين.